الفصل الخامس

مشكلات الدعوة والدعاة[1]

أولاً : عجز جهاز الدعوة :

يقوم جهاز الدعوة على دعامتين : دعامة بشرية ، هى الأساس ، ودعامة مادية تتمثل فى مؤسسات الدعوة ، ومقارها ، وأدوات توصيلها ونشرها ، وكا ما يعتبر وسيلة معينة على تحقيق الاتصال الناجح المثمر بين الدعاة والمدعوين .

ومشكلة جهاز الدعوة الإسلامية اليوم يواجه عجزًا شديدًا فى الجانبين معًا : البشرى والمادى ، أو بتعبير آخر : عجز فى الكم والكيف .

فمن حيث الكم : نجد قصورًا واضحًا فى أعداد الدعاة المشتغلين بالدعوة على وجه العموم : فالمساجد – مثلاً – لا تجد من الأئمة والخطباء من يقوم بهذه الوظيفة بأعداد تكفى لتغطية حاجاتها جميعًا ، والواقع – حتى فى أحسن المجتمعات الإسلامية ظروفًا من هذه الناحية – ينطق بهذا النقص !!

ومثل ذلك يقال فى عدد الوعاظ فالمؤهلون منهم قلة محدودة جدًّا وبجانبهم أعداد هائلة ممن يمارسون الوعظ هواية ، أو من خلال

---

(١) راجع د . محمد حسين الذهبى ، مشكلات الدعوة والدعاة ص ٢٠ .

جمعيات تعد لهم مستويات من الدراسة ، تتيح لهم حدًّا أدنى من المعرفة الدينية التى قد تكفى لمواجهة حاجات البيئات المحدودة الفكـر والثقافة ، ولكنها لا تفى بحاجة الإنسـان الذى نال قسطًا كبيرًا من ثقافة العصر ، وتعرض لمؤثراته الفكرية والحضارية !!

إن ساحة الدعوة الإسلامية داخل البلدان الإسلامية نفسها خالية – إلا نسبة محدودة منها – من دعاة حقيقيين قادرين على حمل أمانة الدعوة والوفاء بها !!

فأكثر المساجد – فعلاً – تخلو من الدعاة الحقيقيين الذى يستطيعون نقل الأمة من محيط إلى محيط ، ويواجهون مشاكلها بحلول تقنع العقل والقلب معًا ، فإذا ولينا وجهنا نحو ساحة الدعوة فى خارج بلاد المسلمين رأينا العجز أوضح وأكثر ، إن ملايين البشر فى القارات الخمس ما زالوا على فطرتهم ولو وجدوا دعاة صالحين يحسنون عرض تعاليم الإسلام السمحة ، وعقائده السهلة الواضحة لدخلوا فى دين الله أفواجًا ولكنهم – ويا أسفاه – لا يجدون من ينقل صوت الحق إليهم ، ولا زالوا يعيشون فى ظلمات من جهل العقائد المنحرفة والأديان الأخرى الباطلة .

إن الإسلام هو دين الفطرة والعقل ، وأكاد أجزم أن حكومات العالم الإسلامى لو جندت طوائف من الدعاة الواعين وبعثت بهم إلى الأمم الأخرى شرقا وغربا لاستطاع الإسلام خلال نصف قرن أن تكون له الكلمة العليا فى تلك البلاد .

يقول الشيخ محمد الغزالى : « لقد قامت حكومات إسلامية شتى فى القارات الثلاث القديمة .

وكان يجب عليها أن تصدع بأمر الله ، وتؤلف الوفود من العلماء لغزو ثقافى واسع النطاق يقرب حقائق الإسلام من الشعوب المحرومة ويكذب عشرات الشبه التى روجها المفترون ضده ، غير أن هذه الفريضة الجليلة لم تلق العناية المطلوبة ولم يتوجه لها الحكام المالكون للسلطة .

ولعلهم رأوا ترك هذا العبء للأفراد يعالجونه كيف شاءوا .

وقد سمعت زميلاً يأسى لسياسة حكام الأندلس ويستغرب إهمالهم البعوث لغرب أوربا طوال ثمانية قرون .

مع أن الحاجة كانت ماسة لاختيار علماء مزودين بوسائل النجاح يجوسون خلال الديار ويقفون أهليها على حقيقة الدين الذى يعادون »[1] .

ويذكر الشيخ الغزالى فى موضع آخر بعض مظاهر تفريط المسلمين فى دعوتهم فيتناول منها : « ضعف أجهزة الدعاية الخارجية للإسلام ، أو انعدامها وترك تعليم الأجانب لجهود الأفراد ونشاطهم الخاص ومعروف أن انتشار الإسلام فى أواسط إفريقيا وأغلب آسيا يرجع إلى ذلك الجهاد الفردى المسالم الدءوب .

---

(١) مع الله ١٧٥ .

وهو جهاد لم ترسمه خطط منظمة ، ولم تستفد من أرباحه عيون يقظة ، بل لم تحرس ثمراته قوى معدة والسبب فى هذا التقصير المعيب ، أن الدول الإسلامية كثيرًا ما شغلتها منافع خاصة أو سياسات قصيرة النظر ، بل كثيرًا ما قامت على أنقاض المثل الدينية الرفيعة .

وهذا الاعتلال فى أداة الحكم أضر بسير الإسلام فى أرجاء الأرض أبلغ الضرر .

والواقع ، أن كثيرًا من الحكومات الإسلامية فى التاريخ القديم كانت عقبات فى طريق انطلاق الدعاة لأداء واجبهم على نحو واضح ونهج مرسوم »[1] .

والسؤال الآن : كم من الدعاة الآن يبشرون بالإسلام على سطح هذا الكوكب الذى نعيش فيه ؟

لو تصورنا أن كل مليون من البشر يكفيه داعية واحد – وهو فرض أقرب إلى الخيال – لكان العدد المطلوب من الدعاة بضعة آلاف داعية ، فهل نستطيع أن نحصى على مستوى العالم الإسلامى كله أكثر من بضع عشرات ؟ تلك حقيقة يجب أن نذكرها وأن نذكر بها[2] .

هذه مشكلة الدعوة وجهازها من حيث عدد الدعاة وهم العنصر الأساسى فيها .

---

(١) السابق ٤١ وما بعدها .

(٢) راجع : د . محمد حسين الذهبى : مشكلات الدعوة والدعاة .

فإذا انتقلنا إلى مشكلة الدعوة من حيث نوعية الدعاة ، صدمنا الواقع صدمة قاسية :

يقول فضيلة الأستاذ الدكتور الذهبى : « إن مستوى الداعية فى أحسن حالاته اليوم لا يفى على الإطلاق بحاجة من يدعوهم ، إن إنسان العصر الذى نعيش فيه يريد أن يجد فى الدين حلولاً لكل مشكلات الحياة التى تعترضه سواء فى سلوكه الشخصى ، أم فى علاقاته الأسرية ، أم فى معاملاته الاقتصادية ، ويريد أن يجد للدين كلمة تضىء له طريقه فى قضايا الحكم ، ومسائل السياسة ، ومشكلات الاقتصاد والشباب – بخاصة – فى حاجة إلى أن يقدم لهم من خلال الدين نظرة متكاملة للحياة تستطيع إشباع حاجاتهم للمعرفة ، وتتيح لهم ما يبحثون عنه من سكينة النفس ، واطمئنان الضمير .

هذه المطالب المعقدة المتشابكة ، يقدم الدين حلولاً جذرية وعميقة لها ، ولكن السؤال هو : ما مدى إدراك الداعية لهذه المشكلات ؟ ثم ما مدى قدرته على استنباط حلولها والإجابات الصحيحة عنها ؟

هنا يبرز لنا قصور الإعداد ونقصه ، حتى على مستوى حملة الشهادات العلمية التى تجيزهم بأهلية العمل فى مجال الدعوة وتقرر صلاحيتهم لها »[1] .

ولكن ما سبب قصور الدعاة وتقصيرهم ؟ يذكر الدكتور الذهبى – ومعه المستشار على جريشة[2] – أن العلة فى ذلك مناهج إعدادهم ، ووسائل تكوينهم .

---

(١) مشكلات الدعوة والدعاة .

(٢) الاتجاهات الفكرية المعاصرة .

وأول ما يلاحظ على هذه المناهج والأساليب :

أولاً : أنها بدلا من وصل الطالب وصلاً مباشرًا بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ أحلت بديلاً منها يتمثل فى كتب ومذكرات مهما كانت قيمتها فلن تصلح بديلاً فى يد داعية لأن يكون على بصيرة بدين الله ، يستمدها من مصادر الوثيقة : كتاب الله وسنة رسوله .

ثانيًا : إن فلسفة إعداد الدعاة عنيت – ولا تزال تعنى – بالجانب التعليمى التلقينى ، بينما هى تُهمل إهمالاً شبه كامل الجانب التربوى الذى هو الوجه المكمل للوجه النظرى !!

إن العلم وحده لا يكفى لتكوين داعية .. لقد قال رسول الله ﷺ : « أخوف ما أخاف على أمتى كل منافق عليم اللسان » .

إن العلم إذا لم يستند إلى خلق يحميه من نزوات النفس وطغيان الشهوات ، ويصونه عن الدنايا وسفاسف الأمور ، يصبح كارثة حين يوجه لغايات آثمة ، أو يستغل فى مآرب خبيثة .

لذلك يجب على أقسام الدعوة وكلياتها فى جامعة الأزهر أن تهتم بتنمية الإحساس لدى طلابها بأنهم أصحاب رسالة يحملونها وأن وظيفتهم امتداد لوظيفة النبوة .

ومن ثم فإن مسئوليتهم أمام الله والناس مسئولية ضخمة .. فمن الضرورى – إن أردنا لدعوتنا نجاحًا – أن نربى الدعاة على أخلاق الإسلام ومثله العليا ، ونعمل – بكل السبل – على مرانهم على تطبيق

الإسلام فى حياتهم علميًّا ، وتزكية أنفسهم بما يجعلهم بعيدين عن الدنايا ، مستعدين للتضحية من أجل رسالتهم ودينهم .

وفى هذا المجال نذكر أهمية دراسة الكتب والبحوث التى تعنى بتربية النفس وتهذيبها ، وأمراض القلوب وعلاجها ، ومن الخير أن يعايش الدعاة هذه الأخلاقيات عمليًا فى المعسكرات والرحلات وغير ذلك يقودهم فى ذلك ويرشدهم بعض الأساتذة المشهود لهم فى مجال التربية والأخلاق .

هذا .. ويقترح فضيلة الدكتور الذهبى – لتخريج جيل من الدعاة الأكفاء – إنشاء كلية للدعوة الإسلامية – تتحول فيما بعد إلى جامعة – بتمويل إسلامى عام ، ويختار لها الدارسون من الطلاب اختيارًا دقيقًا من كل أنحاء العالم الإسلامى ، من خلال نظام محكم للقبول ، لا يمر منه إلا من تتوافر فيه مقومات خاصة ، تؤهله لأن يكون داعية بمفهوم الداعية الصحيح .

هذه الكلية يجب أن تختلف عن المألوف فى النظم الجامعية العادية ، فالدراسة والتربية فيها متكاملتان ، وتبتدئ من سن باكرة (١٢) سنة مثلاً . والمراحل فيها مترابطة ، تسلم كل منها إلى ما يليها ، والحياة فيها تصمم بحيث تتيح لأصحابها معايشة الإسلام معايشة حية .

وهيئة التدريس وجهاز التربية فيها ، يجب أن يكون كله من رجال لهم – إلى جانب علمهم وخبرتهم – اهتمام بالدعوة إلى الله ، بدرجة تجعل منهم مجاهدين محتسبين ، وليس مجرد موظفين يتقاضون أجورًا يتنافسون عليها .

أما المناهج : فيجب أن يتوافر فيها ما يغطى النقص ، وفى مقدمتها :

١- ثُغرة الضعف فى التكوين اللغوى .

٢- ثُغرة الانفصام عن المصدر الأصلى للإسلام ممثلا فى الكتاب والسنة .

٣- ثُغرة الانغلاق وعدم الاقتحام لثقافات العصر وتحديد مواقف منها[1] .

ثانيًا : تفرق الدعاة وكثرة الجماعات :

من المشكلات التى تعوق مسار الدعوة الإسلامية وتمكن لأعدائها من النيل منها ، تفرق الدعاة واختلاف مناهجهم وآرائهم حول العمل للإسلام .

والخلاف فى ذاته ليس عيبًا لأنه من طبيعة البشر ولكن المشكلة الحقيقية تكمن فى الإصرار على الفرقة والخلاف دون ما داع من الدين ودون مبرر شرعى معقول يدعو إلى ذلك . اللهم إلا حبّ المناصب والألقاب والزعامات ، لقد رأينا كل من هب ودب يتخذ لنفسه جماعة ليصبح أميرًا للمؤمنين وقائدا للغر المجاهدين ، وما دام قد أباح لنفسه صنع جماعة فإنه لا يرعوى من وضع أسس ومبادئ يختلف بها عن الآخرين حتى يوجد مبررًا لقيام جماعته ، وهكذا ترى على الساحة الإسلامية كمًّا لا بأس به من الجماعات والفرق مثل : جماعة التبليغ ، والسلفيين والإخوان المسلمين ، وأتباع الشيخ محمد بن عبد الوهاب

---

(١) مشكلات الدعوة والدعاة (بتصرف وتلخيص) .

(الوهابيين) ، والقطبيين وأنصار السنة والجمعية الشرعية ، وجماعة الجهاد وحزب التحرير والفرق الصوفية .

وغير ذلك من الجماعات التى يجمعها قول الله تعالى : ﴿ إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعًا لست منهم فى شىء إنما أمرهم إلى الله . ثم ينبئهم بما كانوا يفعلون ﴾[1] .

ويجمعهم كذلك قوله تعالى : ﴿ ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البيّنات وأولئك لهم عذاب عظيم ﴾[2] .

والعجيب أن الجماعة الواحدة قد تنقسم على نفسها فتنشأ منها طوائف متعددة قد تتفق وكثيرًا ما تختلف كالطرق الصوفية مثلاً التى ترى لكل جماعة منهم شيخًا وأورادًا وطريقة تختلف عن الطرق الأخرى .

ولا ريب أن فرقة الدعوة وتفرق الدعاة أضعف الدعوة الإسلامية ومكن منها أعداءها ، ولو اتحد القائمون على الدعوة ، وعملوا على إزالة الخلافات المصطنعة فيما بينهم لكان فى ذلك خير كثير للإسلام والمسلمين .

إن الإسلام لا يمنع أن تكون هناك جماعات تنسق العمل فيما بينها وتتعاون على البر والتقوى فيمكن أن يكون للبر والإحسان جماعة ولكفالة اليتيم ورعاية شئونه جماعة ، وأن يكون لمكارم الأخلاق جماعة ، وللعقيدة وتنقيتها جماعة ، وللسياسة وللرقى بها أحزاب وجماعة ،

---

(١) الأنعام آية ١٥٩ .
(٢) آل عمران آية ١٠٥ .

لا بأس من ذلك كله بشرط أن نتعاون فيما اتفقنا عليه ويعذر بعضنا بعضا فيما اختلفنا فيه ، ولكن الذى لا يقبله عقل ولا دين ولا خلق أن تتخاصم الجماعات فيما بينها وتتناحر ، ويتهم بعضها بعضًا ، ويسخر بعضها من بعض ، بل أحيانا تصف جماعة نفسها بأنها فقط على الحق والصواب وأنها – فحسب – جماعة المسلمين ، وأن غيرها على الباطل والضلال ويقف الناس حيارى .

أتلك هى الدعوة إلى الله ؟

أهؤلاء هم الداعون إلى الله ؟

وقد يزلزل الناس فى إيمانهم إن لم يتبينوا الغث من السمين وإن لم يميز الخبيث من الطيب وإن لم يعرفوا الزبد مما ينفع الناس .

هذا هو واقعنا المعاصر بكل ما يحمل من أسى وخزى وبكل ما يثير فى النفس من ألم ومرارة .. مما جعل أعداء الدعوة يرصدون تلك الفرقة ويسخرون من الدين كله ويقولون لنا : أى إسلام هذا الذى تريدون أن يحكم ؟ أهو إسلام السلفيين أم إسلام المتصوفة أم إسلام الخمينى أم إسلام الجماعات الإسلامية ؟ !!

وإننى لأرجو من إخوانى فى الله ممن يعملون فى مجال الدعوة الإسلامية أن يتناسوا الخلافات فيما بينهم ، وأن يكونوا على قلب رجل واحد خصوصا وأن أعداء الدعوة لا يفرقون بين جماعة وجماعة .. فليتقوا الله دعاة الفرقة والفتن وليعلموا أن جوهر الدعوة واحد ، وأصول الإسلام وركائزه واحدة بفضل الله ، وأن الخلاف

لا يتجاوز الفرعيات التى لا يجوز شرعًا أن نختلف بسببها ﴿وأن هذا صراطى مستقيمًا فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون﴾[1] .

يا دعاة الإسلام كفاكم فرقة واختلافًا ، وانظروا فى مستقبل أمتكم وتأملوا ما يحيط بها من أخطار وأهوال تكاد تعصف بها وتدع الحليم حيران؟!

إننى أكتب هذه السطور وألمح فى الأفق تحالفا آثما بين الصليبية العالمية ، والصهونية الفاجرة على حرب الإسلام وإذلال أهله .

لقد فعل اليهود الأعاجيب فى بيت المقدس ولا أدل على ذلك مما نسمعه ونراه من فعل الصهاينة بالمسلمين فى المسجد الأقصى من ذبح العشرات منهم وجرح المئات كل ذلك داخل حرم المسجد الأقصى ، ثم إغلاقه فى وجه المسلمين وعدم تمكينهم من دخوله وإقامة العبادة فيه مما هيج مشاعر المسلمين وغيرهم ، وهم عازمون على هدمه وإقامة هيكل سليمان مكانه ، وأغلب الظن أن ذلك سيحدث قريبًا من كتابة هذه السطور ، ويومئذ لن نسمع من قادة المسلمين إلا الشجب والاستنكار ، وتتوالى البيانات تستنكر هذا العمل اللا إنسانى الذى يتنافى مع سماحة الأديان !! وستكتمل المهزلة عندما يلجأ المسلمون إلى عصبة الأمم المتحدة ليستصدروا قرارًا بإدانة إسرائيل على هدم المسجد الأقصى !! وأغلب الظن أن أمريكا ستستخدم حقها فى

---

(١) الأنعام آية ١٥٣ .

الاعتراض على الإدانة وتوصى الجميع بالحكمة وضبط النفس !! وإنها لفتن كقطع الليل المظلم تدع الحليم حيران كما أخبر نبينا محمد ﷺ ، فهل يفيق دعاة الفرقة والانقسام ويعودوا إلى الوحدة والوئام ؟

« اللهم هل بلغت ؟ اللهم فأشهد !! »

ثالثًا : عدم استقلال مؤسسات الدعوة :

لا تستطيع مؤسسات الدعوة أن تؤدى رسالتها نحو الإسلام والمسلمين إلا فى جو من الحرية والاستقلال بعيدًا عن الحكومات القائمة والأنظمة السياسية لأن السياسة متقلبة والإسلام ثابت ، والسياسة تقوم على النفعية والمصالح الدنيا ، والإسلام مثل ومبادئ ، ولذلك ما دخلت السياسة فى شيء من أمور الدين إلا أفسدته وما اشتغل عالم من علماء الإسلام بالتنظيمات السياسية إلا انطفأ بعد إشراق وفسد بعد صلاح وباع دينه بعرض قليل من الدنيا .

وقد كان من فضل الله على الأزهر – وهو المؤسسة الأم للدعوة فى العالم الإسلامى كله – أن عاش مستقلا استقلالا كاملاً فى القرن السابق والقرون التى قبله .

لقد حبست عليه عندما تم بناؤه فى سنة ٣٦١ هـ = ٩٧٢ م بعض مصادر الثروة من المتبرعين الخيريين للإنفاق على شئون التعليم فيه – سواء ما يتعلق بالمدرسين أو بالطلاب – ليظل بعيدًا على الانفاق الحكومى ، وبالتالى بعيدًا عن سياسة الحكومة القائمة ، وبذلك يكون مستقلاً ، ويكون علماؤه مستقلين فيما يعلنونه من رأى ينسبونه إلى

الإسلام ، أو فيما يعلنونه من موقف يتخذونه إزاء حدث من الأحداث في أى مجتمع من المجتمعات الإسلامية .

ومن وسائل الاحتياط فى التعبير عن الرأى لعلمائه وضمان استقلال رأيهم وعدم خضوعه لميل سياسى معين تمليه جهة لها نفوذ عليه ، كان هنا تمويل الحركة التعليمية فيه من مصادر « الخير » وهى الأوقاف التى تحبس على الخير العام ، يتنازل عنها أصحابها بغية رضاء الله وتقربًا إليه .

وفى مقدمة مفهوم « الخير » فى نظر الواقفين : العناية بالدعوة الإسلامية ، تعليمًا ونشرًا ، وكان كل وقف يخصص مصرفه للتعليم الإسلامى ينظر عليه « شيخ الأزهر » من قبل صاحب الوقف ضمانًا لمصرف الريع فيما خصص له وهو « التعليم » ورعاية الدعوة الإسلامية .

وكان « شيخ الأزهر » هو الراعى لشئون تعليم الدين فيه ، وشئون الدعوة الإسلامية، كما كان هو الناظر على أوقاف المسلمين الخيرية على الدين.

وكان علماء الأزهر، وطلابه، يعيشون فى ظل هذا الاستقلال ويرعون فقط شيئًا واحدًا فحسب وهو دين الله وتعاليمه: درسًا وبحثًا ، وتعليما ونشرًا، محافظين فى أقوالهم باسم الإسلام على أن يجنبوا أنفسهم-بقدر ما يمكن-الخضوع تحت تأثير أى مؤثر داخلى أوخارجى.

ومن باب الاحتياط وإبعادًا لكل شبهة تأثير كانوا يختمون ما يتحدثون عنه ، أو يفتون به بقولهم : « والله أعلم »[1] .

---

(١) دكتور محمد البهى : غيوم تحجب الإسلام ٩٥ - ٩٦ (بتصرف وتلخيص) .

ومهما يكن من أمر ، فإن علماء الأزهر – فى أمسه – لم يقعوا عن طريق استقلالهم فى تمويل التعليم والنشاط الدينى داخله وخارجه – تحت تأثير اتجاه سياسى محلى أو عالمى .

وكانوا أحرارًا فيما يقولونه باسم الإسلام فى تكييف الأحداث ، وفى الحكم عليها – وفى تصرفات المسلمين : حكامًا ، ومحكومين على السواء .

وبذلك كانت لهم مواقف ضد الظلم فى الداخل ، كما كانت لهم مواقف أخرى ضد الاستعمار الأجنبى من الخارج ، كما كانت لبعض الشخصيات الأزهرية فى أمسه على عهد استقلاله آراء حفظت كيان الأمة المصرية من أن تعصف بها عواصف الظلم والاستبداد ، مما كان يمارسه حكام مصر على عهد المماليك وعلى عهد العثمانيين سواء .

ثم كان للأزهر ولرجاله تلك المواقف المشهورة فى وجه الغزاة الفرنسيين على عهد نابليون وضد الاحتلال البريطانى فى فتراته المختلفة ، وبالأخص فى ثورة ١٩١٩ م مما يجعل كل مسلم فى الداخل والخارج يتذكر استقلال الأزهر وفاعليته باسم الإسلام ، وعلى أسس من مبادئه ، ثم يستخلص قيمته فى دعم كيان الأمة ، والحفاظ على روح العدل فيها ، فى الوقت الذى صان فيه تراث الأمة فى ثقافتها وروحيتها ، ولغتها العربية .

وهنا بعض النماذج التى تصور مدى استقلال الأزهر واستقلال علمائه فيما أبدوه من آراء تمس حياة الأمة فى عصورها المختلفة ، وعلى أساس منها وقت الأمة نفسها من الضياع ، أو من الذوبان ، أومن المذلة والضيم ، كما أراد لها بعض حكامها ممن وفدوا عليها من : هنا .. وهناك .

(أ) ذكر الجبرتى فى تاريخه : أن الشيخ محمد بن سالم الحفنى الشافعى[1] كان قطب رحى الديار المصرية ، لا يتم أمر من أمور الدولة إلا باطلاعه ومشورته ، وكان فوق هذا عضوا فى ديوان الحكومة يمثل الشعب المصرى ، مع جماعة من إخوانه تمثيلاً رائعًا ، حتى كان على بك الكبير[2] — كان على شدته وقوة ملكه لا يستطيع مقاومته ولا معاداته ، وكان فى مناقشاته فى الديوان لا يتردد أحيانًا أن يهدد الحكام باسم الشعب إذا عمدوا إلى ما يسىء إليه أو يضر بمصلحته : فقد وقف مرة يناقش فى إرسال حملة حربية لإخضاع بعض الأمراء الخارجين فى الصعيد ، وكان رأى الشيخ أن تلك الحملات الحربية تضر بالناس وتعطل مصلحتهم ولم يتردد فى آخر خطبته القوية أن يصيح قائلاً : « والله لن نسمح أن يسافر أحد ، وإن سافرت الحملة فلن يحدث خير أبدًا » .

(ب) وتشتد وطأة أحد الأمراء على أهل بلبيس سنة ١٧٩٥م فى تحصيل الأموال وتلفت الفلاحون إلى ملاذهم ، والتجئوا إلى

---

(١) تولى مشيخة الأزهر سنة ١٧٥٧م .
(٢) استقل بأمر مصر ١٧٦٦م .

الشيخ عبد الله الشرقاوى[1] . ورجوا الشيخ فى أن ينقذهم من هذا الظلم ، فبعث الشيخ بمطالبة مراد بك[2] ليكف الأمير الظالم عن ظلمه ، ولما لم يجد الشيخ لمسعاه أثرًا فى إصلاح الحال بالسعى السلمى دعا الناس إلى الثورة ، وكانت النفوس مستعدة لدعوته فاجتمع له كثيرون من أهل القاهرة ومن أهل الأطراف ، وأوشك الأمر أن يؤدى إلى ثورة دموية مدمرة وقضت القاهرة ثلاثة أيام فى اضطراب وخوف والناس مصرون على أن يوقفوا الحكام عند حد العدل والحق أو يواصلوا الجهاد ، وإن أدى ذلك إلى إراقة الدماء وبذل الأموال والأنفس فرأى كبار الأمراء أن الأمر يوشك أن ينتهى إلى اضطراب لا قبل لهم به فذهبوا إلى بيت إبراهيم بك واجتمعوا به هناك وأرسلوا إلى المشايخ فحضر الشيخ السادات ، والشيخ النقيب ، والشيخ الشرقاوى والشيخ البكرى والشيخ الأمير[3] .. ودار الكلام بينهم وطال الحديث وانتهى الأمر بأن أعلن الأمراء أنهم تابوا والتزموا بما شرطه العلماء عليهم .

وانعقد الصلح على شروط كتبها العلماء فى وثيقة يمكن أن نسميها بالوثيقة الاجتماعية أو الوثيقة السياسية ، وقد تضمنت أن الأمراء يتعهدون بالعدل ، ويتوبون عن المظالم ويعدون بالقيام بالواجبات التى يفرضها عليهم القانون والعرف من صرف الأموال على مستحقيها ، وإرسال غلال الحرمين إليها ، ورفع الضرائب المستحدثة ، ويكفون

---

(١) ولى مشيخة الأزهر (١٢٠٨/١٢٢٧هـ) .

(٢) من زعماء المماليك فى أواخر القرن الثامن عشر .

(٣) وكلهم من كبار رجال الأزهر .

أتباعهم عن امتداد أيديهم إلى أموال الناس ، وأن يسيروا فى الحكم سيرة حسنة ، وكان القاضى حاضرًا بالمجلس فوثق ذلك ، وانحلت الفتنة ورجع المشايخ وحولهم وأمامهم وخلفهم جملة من العامة فرحين بالنصر الكبير[1] .

فلم يكتف العلماء بالنقد والنصح حينما انحرف الأمير وإنما انتهجوا منهجًا عمليًّا يقومون به المعوج ويرجعون به الحق إلى نصابه .

(جـ) ويروى الجبرتى أيضًا[2] أن ثورة أخرى قامت من الأزهر بقيادة الشيخ الدردير[3] وتتلخص وقائعها فى أنه سنة ١٢٠٠هـ نهب (حسين بك شفت)[4] وجنده .. دارًا بحى الحسينية لشخص يدعى أحمد سالم الجزار وقد أثار هذا الحادث ثائرة الأهالى . فاتفقوا على الالتجاء إلى الشيخ الدردير ، وكان من أقوى العلماء شخصية ، وأوسعهم نفوذًا ، وفى اليوم التالى لهذا الحادث اجتمع فريق من الأهالى وقصدوا شطر الأزهر ، وأخبروا الشيخ الدردير بما حدث فأثار النبأ الشيخ الذى عبر عن استيائه لاستهتار الأمراء بمصالح الشعب وتعسفهم فى معاملته ، وأعلن فى الجماهير انضمامه إليهم وأمر بدق الطبول على منارات المساجد إيذانا بالاستعداد للقتال ، وأسرع الأهالى نحوالأزهر وعولوا على النضال ، ولما اتصلت أنباء تجميع الجماهير الثائرة بمسامع إبراهيم بك وبلغه

(١) راجع تاريخ الجبرتى ٢٥٨/٢ .
(٢) ١٠٣/٢ .
(٣) هو أحمد بن محمد بن أحمد العدوى الشهير بالدردير (١١٢٧/١٢٠١هـ)
(٤) أحد الأمراء العثمانيين .

تصميم الشيخ الدردير على قيادة الشعب ضد الأمراء خشى أن يستفحل هذا الخطر ، ويفقد ما يتمتع به من نفوذ فى مصر ، فأوفد نائبه فى صحبة أحد الأمراء إلى الشيخ الدردير يعبرون له عن أسف الأمير لما حدث ، ووعده بأن يكف أيدى الأمراء عن أذى الناس كما قرر الأمير لوم حسين بك شفت ، وأمره برد ما نهبه إلى صاحبه .

(د) وعندما أشيع مجيء الحملة التركية لإصلاح الحكم فى مدة حكم الطاغيتين مراد بك وإبراهيم بك بقيادة القبودان حسن باشا ، ذعر مراد بك وإبراهيم بك خوفًا من أن ينتهز الشعب هذه الفرصة ليثور على حكمهما ، فحاول المماليك التقرب إلى العلماء زعماء الشعب والتذلل لهم ، يقول الجبرتى[1] :

« فذهب إبراهيم بك إلى الشيخ البكرى ثم الشيخ العروسى ثم الشيخ الدردير ، وصار يبكى لهم ، وتصاغر فى نفسه جدا ، وأوصاهم على المحافظة وكف الرعية عن أمر يحدثونه ، أو قومة أو حركة فى مثل هذا الوقت ، فإنه كان يخاف ذلك جدًّا » .

(هـ) ويتطلع الشعب إلى العلماء لإنقاذهم من ظلم الوالى التركى خورشيد باشا[2] وظلم جنده ويقود الحملة السيد عمر مكرم[3] واتفقت الكلمة على عزل خورشيد باشا وتولية محمد على عليهم بشروطهم وبأن ينزل على مشورة العلماء ، وولاه السيد عمر مكرم والشيخ الشرقاوى

---

(١) تاريخه ١١٨/٢ .

(٢) فى نهاية القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر .

(٣) (١٨٢٢/١٧٥٥) .

سنة ١٨٠٥م وحاصر عمر مكرم القلعة على خورشيد باشا ، وأعلنه بالعزل ، فقال له خورشيد باشا : كيف تعزلون من ولاه السلطان عليكم ، وقد قال الله تعالى : ﴿أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ، وأولى الأمر منكم﴾ ؟ فأجابه عمر مكرم بقوله : « أولوا الأمر هم العلماء ، وحملة الشريعة ، والسلطان العادل ، فقال خورشيد : وليت بأمر الخليفة فلا أعزل بأمر الفلاحين . فقال عمر مكرم : للناس أن يعزلوا الحاكم الظالم وأن يخلعوا حتى الخليفة إذا سار فيهم بالجور . وحسم السلطان الأمر بإصدار فرمان فى سنة ١٨٠٥ يتضمن تثبيت محمد على فى الولاية على مصر « حيث رضى العلماء والرعية وأن خورشيد باشا معزول عن ولاية مصر » .

(و) ويقود الأزهر الشعب لمقاومة الغزو الفرنسى حينما جاء نابليون إلى مصر ويغتال طالب أزهرى هو سليمان الحلبى[1] « كليبر » فيعدم الحلبى مع أربعة من شيوخ الأزهر وطلابه ، وكان نابليون قد أعدم من قبل ثلاثة عشر عالمًا من علماء الأزهر سنة ١٧٩٨ ، حرضوا الناس على الثورة وقادوا المظاهرات احتجاجًا على الغزو الفرنسى كما قاد السيد عمر مكرم الشعب عند حملة « فريزر » لصد الغزو الإنجليزى سنة ١٨٠٧م وحشد السيد عمر مكرم المقاومين ، وأقام الاستحكامات الدفاعية وحفر الخنادق حول القاهرة وكان يذهب صباح كل يوم مع الجماهير المحتشدة حيث يقوم العمال بعمل الاستحكامات الحربية ، ويظل سحابة نهاره بينهم ، وكان أحيانًا يشاركهم إقامة هذه

---

(١) طالب سورى كان يدرس بالأزهر ، واغتال القائد سنة ١٨٠٠م .

الاستحكامات فيثير فيهم الحماس والوطنية وحب الاستشهاد فى سبيل الله والدفاع عن الوطن ، حتى باءت حملة « فريزر » بالفشل ورجعت بالخسران .

يقول الأستاذ الدكتور محمد البهى تعليقًا على المواقف السابقة لعلماء الأزهر : « ولم تكن المواقف السابقة منبعثة من غلظة فى الطبع ، أوطبيعة عصبية مشددة ، وإنما كان انبعاثها من مجموعة من الأخلاق والمثل التزم بها هؤلاء العلماء كجزء من إيمانهم بالإسلام وتعاليمه ، ووفاء لما أملته العامة فيهم فكانوا عند حسن ظنهم »[1] .

ويحكى التاريخ أن السلطان العثمانى عندما نزل على حكم العلماء بزعامة السيد عمر مكرم وعزله والى مصر الظالم خورشيد باشا هنا تجلت سماحة السيد عمر مكرم حيث أرسل مائتين من الإبل حملت متاع الوالى والمحاصرين معه من رجال ونساء وأنزله فى ضيافته بضعة أيام ليحميه من غضب الشعب ويسر له سبيل النجاة .

ويعتذر شيخ الإسلام زكريا الأنصارى عن منصب قاضى القضاة حينما عرض عليه الحاكم قايتباى فأبى الأنصارى وألح قايتباى ، وقال للشيخ : إن أردت نزلتُ ماشيًا بين يديك أقود بغلتك إلى أن أوصلك إلى بيتك ، مسترضيًا الشيخ ، وهنا قبل من الشيخ من اللوم والتأنيب والتعنيف الشديد مع أنه هو الذى ولاه .

وقال له : « أيها الملك ، تب لنفسك ، فقد كنت عدمًا فصرت وجودًا وكنت رقيقًا فصرت حرا ، وكنت أسيرًا فصرت أميرًا ،

---

(١) غيوم تحجب الإسلام ١٠٢ .

وكنت أميرًا فصرت ملكًا ، فلما صرت ملكًا تجبرت ونسيت مبدأك ومنتهاك »[1] .

الأزهر منذ بداية القرن العشرين :

لم ينس الاحتلال البريطانى الذى احتل مصر سنة ١٨٨٢م دور الأزهر فى مقاومة الغزو الفرنسى فى عهد « نابليون بونابرت » (١٧٦٩/١٨٢١م) ولذا ركزت السياسة البريطانية فى مصر على أمرين :

أولاً : على ازدواج التعليم فى مصر ، بعد فصل التعليم فى الأزهر عن التعليم فى الدولة وقد كان نمط التعليم فى الأزهر إلى عهد محمد على هو النمط الوحيد أو الأصيل ، كما كان التعليم فى قرى مصر جميعها مؤهلاً فقط للالتحاق بالأزهر والتخرج فيه .

وعلى أساس من ازدواج التعليم يصبح هناك دينى فى الأزهر ، وآخر غير دينى أو علمانى فى غير الأزهر من المدارس فى مراحلها المختلفة التى تنشئها وزارة المعارف العمومية إذ ذاك .

وثانيا : على إلغاء استقلال الأزهر فى تمويله وإلحاقه بجهة حكومية حتى تكون للإدارة القائمة فى مصر فى عهد من العهود الإشراف على التعليم فيه ، وكذلك على توجيه رجاله – بقدر ما يمكن – فيما يعلنونه من آراء وفتاوى باسم الإسلام ، ضمانًا للوجود البريطانى ، أو للوجود

---

(١) وردت القصة فى الكواكب السائرة ص ١٩٦ .

الأوروبى على الأقل ، وهو وجود رأسمالى فى اقتصاده ، وعلمانى فى سياسته ومسيحى فى إيمانه .

أما الأمر الأول : فقد سارت فيه حكومة الاحتلال البريطانى فى مصر خطوات واسعة ، حتى إنها عمدت إلى نمط التعليم الأزهرى وأنشأت بعض المؤسسات التعليمية التى تنافس الأزهر فيه فأنشأت مدرسة القضاء الشرعى ، ومدرسة دار العلوم الأولى لتخريج قضاة فى المحاكم الشرعية ، والثانية لتخريج معلم اللغة العربية فى مدارس وزارة المعارف الابتدائية والثانوية .

ثم قصدت كذلك إلى التعليم فى القرى فأنشأت « المكاتب الراقية » تتبع وزارة المعارف بجانب « الكتاتيب » التى كانت تؤهل لحفظ القرآن الكريم ، وتعد الحافظين فيها إلى الالتحاق بالأزهر ، ولكى تعد الإدارة البريطانية معلمًا غير أزهرى لهذه المكاتب الراقية أنشأت مدارس المعلمين الأولية ، وهى تنافس مرحلة التعليم الابتدائى فى الأزهر[1] .

وقد نتج عن ذلك انقسام المجتمع إلى طوائف فى الفكر والثقافة ، وهذا الانقسام أدى إلى الخصومة والتنابذ بالألقاب .

فبينما الأزهريون ينظرون إلى من عداهم نظرة تقوم على عدم الرضا إذ بأصحاب الثقافة غير الدينية ينظرون إلى رجال الأزهر على أنهم غير صالحين للحياة المعاصرة وأنهم يعيشون بتفكيرهم فى الماضى ، وهم لذلك « رجعيون » وهكذا وصل الاحتلال البريطانى إلى نقل بعض النشاط الفكرى للمصريين من معارضته هو إلى معارضة كل

---

(١) دكتور محمد البهى : غيوم تحجب الإسلام ١٠٤ .

طائفة للأخرى ومخاصمتها وتحققت بذلك حكمته القائلة : « فرق تسد » . والتفرقة فى الثقافة والتوجيه هى أخطر ضروب التفرقة[1] .

أما الأمر الثانى : وهو إلغاء استقلال الأزهر فى تمويله وإخضاعه إلى جهة حكومية فى الإدارة المصرية فإن الاحتلال البريطانى – وهو صورة من صور السياسة الأوربية الغربية – له خبرة بموقف « الكنيسة » من « الدولة » فى الغرب ، وهو موقف لا تملك فيه الدولة هناك أن تملى رأيها السياسى على الكنيسة ، لا بسبب منزلة الكنيسة فى نفوس التابعين لها وسيطرتها عليهم سيطرة تمكنها من « الانتقام » ممن يخرجون عليها من هؤلاء الأتباع ، ولكن بسبب رئيسى آخر ، وهو : استقلالها فى التمويل والإنفاق على رسالتها من أموال تملكها وتشرف عليها إشرافًا مباشرًا أو غير مباشر .

وهذه التجربة للاحتلال البريطانى أراد أن يفيد منها فى إضعاف مقاومة الأزهر لسياسة الحكومة المصرية التى تخضع لتوجيهه إن لم يستطع القضاء عليها تمامًا .

وهنا فى سنة ١٩١٥ – بعد إعلان الحماية على مصر فى سنة ١٨١٤ ، وبعد قيام الحرب العالمية الأولى – رأى المستشار المالى للحكومة المصرية ، وهو من رجال سلطة الاحتلال ؛ أن يقوم بتجربة مثيرة فى مجال الأوقاف الخيرية المرصودة على التعليم فى الأزهر ، أو التى يتنظر عليها شيخ الأزهر ، فأرسل إلى شيخ الأزهر كتابًا يعرض عليه مساعدة الحكومة المصرية المالية بدعوى تحسين « الوضع المالى

---

(١) انظر : المرجع السابق ١٠٦ .

لعلماء الأزهر » واقترح أن تقدم وزارة المالية المصرية كل عام ما يحتاجه الأزهر من مال ، على أن تقوم الوزارة منذ هذا العام وهو عام ١٩١٥ بتقديم مبلغ خمسة آلاف جنيه بدلاً من الثلاثة آلاف التى أتت بها حصيلة أوقاف الأزهر ، على أن تزيد الوزارة كل عام بمقدار الحاجة التى يراها شيخ الأزهر ، وفى مقابل ذلك تشرف الحكومة المصرية على أوقاف الأزهر ، ضمانًا لحصولها على الريع الذى تأتى به .

ومنذ ذلك الوقت ابتدأ يضمحل استقلال الأزهر وتقوى التبعية للإدارة الحكومية والتوجيه السياسى للحكومة ، كما ابتدأ الأزهر يصفى أصحاب الرأى فيه ، ويخرج جيلاً جديدًا تتبعه أجيال أخرى فى الإمعان فى التبعية السياسية ويصغى للسياسة وتوجيهها فيما يبديه علماؤه من فتاوى وآراء باسم الإسلام واستنادًا إلى مبادئه .

وكانت ثورة ١٩١٩ الوطنية تكاد تكون آخر المواقف الأزهرية التى تميز بها عهد استقلال الأزهر ، والتى وقف فيها مواقفه المشهورة ضد الاحتلال البريطانى والحماية البريطانية وضد الغزو الأجنبى أو الظلم على العموم .

ويكاد كذلك يكون المغفور له الشيخ عبد المجيد سليم هو — آخر شيوخ الأزهر الذى أثر فيهم وفى آرائهم عهد استقلال الأزهر إلى درجة كبيرة ، وما ينسب إليه من تصريح : « تقتير هنا وإسراف هناك » فى مواجهة سياسة الملك فاروق فى الداخل بين الطوائف المختلفة وفى الخارج فى العبث والمجون وقد كان بجزيرة كابرى فى ذلك الوقت بإيطاليا — أمر معروف . وكذلك فتواه المشهورة بتحريم مراقصة

الأجنبية ، وقد قصد بها أيضًا الملك فى تردده على « أوبرج الأهرام » بالجيزة[1] .

ومهما يكن من أمر : فإن تبعية أجهزة الدعوة الإسلامية فى كثير من البلدان الإسلامية للحكومات والسلطات أمر خطير أفقد الدعوة استقلالها فيما تصدره من فتاوى وآراء ، وكما أدى إلى ضعف رسالتها وتأثيرها فى المجتمع ، لأن التبعية – كما يقرر – بحق – الدكتور محمد حسين الذهبى – عليه سحائب الرحمة – تعنى :

أولاً : أن ينسحب منطق الوظيفة على جهاز الدعوة ، فالعاملون فيه موظفون تحدد عليهم واجبات وتقرر لهم حقوق ، ويخضعون لنظام التوجيه والرقابة ، كما يتعرضون لنظام العقاب والثواب ، أسوة بغيرهم من موظفى الدولة هنا أو هناك .

هذا الإطار الوظيفى إن صلح لأى مجال آخر فى الحياة فهو فى مجال الدعوة غير صالح على الإطلاق ، فالدعوة إنما تقوم – أساسًا – على الالتزام أمام الله ، وليس على الالتزام من جانب السلطات كائنة ما كانت .

ونظام الرقابة فى هذا المجال لا يمكن أن يأتى من خارج الإنسان ، وإنما يجب أن يتولد من داخله خلال عملية الإعداد ، والتربية ، والتكوين .

إن ضمير الداعية يجب أن يكون الفيصل فى مسألة الرقابة وما يتصل بها ، وحاجة الدعاة إلى رقابة خارجية معناه فشل إعدادهم وتربيتهم من

---

(١) المرجع السابق ١٠٧ .

ناحية ، وعدم صلاحيتهم لمهمتهم من ناحية أخرى ، وخيرٌ للدعوة – ألف مرة – أن ينحى عن مجالها كل من يحتاج لرقابة خارجية من بقائه فى ساحتها .

وتعنى ثانيا : إحساس جهاز الدعوة التابع للسلطة بأن مصيره وقدره مرتبط بطاعة أولى الأمر ، وأن مخالفته إياهم – ولو كان فيها إرضاء لله – يعرض حياته وحياة من يعولهم لخطر يتصل بمصدر رزقهم .

وهذا الإحساس يُهَدْهدُ من شجاعة الدعاة فى الجهر بكلمة الحق ، وينمى – بالتدريج – روح الهوينى ويبرر الخمول والكسل ، حتى ينتهى الأمر إلى أداء شكلى هزيل .

وتعنى ثالثًا : أن يدخل الدعاة فى معركة المطالبة بتحسين الأوضاع ، فهم جزء من جهاز الدولة يتأثر بمن حوله ، ودخول الدعاة فى هذا الجو مشغلة من جهة ، تصرفهم عن وجهتهم ، وتبدد الكثير من طاقاتهم ومن جهة أخرى ، ينال من صورتهم – كمثل وقدوة – فى أنظار الناس ، وعلى هذه الصورة يتوقف الكثير من استجابة الناس لهم ، ورفضهم إياهم .

وتعنى رابعًا : أن على جهاز الدعوة أن يختار أحد طريقين : إما أن يساير ما يجرى فى مجتمعه ما دامت السلطات القائمة تقره ، وإما أن يقول كلمة الحق ، معلنا أن السلطات خالفت حكم الله فى هذا الذى أقرته !!

هذا الصراع النفسى داخل نفس الداعية موجود ومستمر طالما ظل هناك انفصال بين مواقف الحكام فى التشريع وتنظيم الحياة وبين توجيه الإسلام »[1] .

والحق أن هذه المشكلة – مشكلة تبعية الأزهر وغيره من أجهزة الدعوة للسلطات والحكومات – من أعقد مشاكل الدعوة ، التى كان لها أثرها السلبى على تاريخ الأزهر ومواقف علمائه وكم مرت بالعالم الإسلامى أحداث وقضايا لو كان الأزهر يعيش حياة الحرية والاستقلال المادى لكان له موقف يذكر ، مؤازرة للحق وتأييدًا لأهله ، كما كان شأن الأزهر فى قرون كثيرة خلت ، ولكن أزهر النصف الثانى من القرن العشرين – كما يقول أستاذنا الدكتور محمد البهى – يختلف عن أزهر : « النصف الأول » من هذا القرن فالأزهر المعاصر ، أزهر يدور برأيه ، وبموقفه فى مجال السياسة التى ترسم له ، ويحاول أن يجذب إلى رأيه وموقفه : الإسلام جذبًا ، وقد يشده إليه شدًّا عنيفًا ، إرضاء للحاكم السياسى ، وإبقاء على الوظيفة التى يتقلدها صاحب الرأى أو الموقف حتى أصبحت الاشتراكية العلمية – وهى اشتراكية ماركس ، وبلشفية لينين – تجد لها تقديرًا فى بحوث علماء الأزهر يتقربون بها إلى الحاكم الاشتراكى ، ويضفون عليها سمة من الإسلام ، والإسلام فى جوهره بعيد عنها كل البعد ، وحتى أصبحت موسكو يحج إليها الإمام الأكبر شيخ الأزهر كما – يحج إلى مكة مهبط الوحى والرسالة ، وربما قبل أن يحج إلى هذا البلد الأمين .

---

(١) مشكلات الدعوة والدعاة ٣٣ – ٤٤ .

وأخطر مرحلة يمر بها الإسلام الآن هى تلك المرحلة الحاضرة التى يشترى فيها علماء الإسلام بآيات الله ثمنًا قليلاً .. هى تلك المرحلة التى يجرؤ فيها من ينتسب إلى دين الله على تطويع كتاب الله لهوى الحاكم بينما يضعف ويستخزى فلا يقول كلمة الحق فى وجهه .

ولا يقل خطر العلماء فى هذه المرحلة فى الحيلولة بين الشباب المسلم المعاصر والرؤية الواضحة للإسلام عن أولئكم الأعداء الذين يثيرون الاتهامات والشبه لدين الله ولرسوله ﷺ[1] .

وقد يتساءل أحد الغيورين على الإسلام من أهل الخير : ما الحل لهذه المشكلة المعقدة مشكلة تبعية مؤسسات الدعوة للأنظمة والحكومات ؟

والجواب على ذلك أنه يمكن تحقيق الحل بالأمور الآتية :

١ – توفير ضمانات كافية تؤمن الدعاة تأمينًا كاملاً فيما يتصل بأنفسهم وأرزاقهم مهما كانت المآخذ .

٢ – أن تتولى محاسبة من يرى أنه ارتكب ما يوجب المحاسبة هيئة علمية ، تحاكمه على أساس واضح من مقررات الإسلام التى لا يجوز للداعية أن يذعن لغيرها ، ولا يجوز لغيره أن يحاكمه إلا على أساسها .

٣ – التفكير فى نظام يكفل تمويل الدعوة على مستوى العالم الإسلامى، وبحيث لا يكون هناك سلطان مباشر للحكومات على الدعاة[2].

---

(١) غيوم تحجب الإسلام ١١٣ .

(٢) انظر : مشكلات الدعوة والدعاة ٤٠ .

٤ – وهنا نقترح : أن تخصص نسبة مئوية من ميزانية كل دولة إسلامية لتمويل الدعوة في الداخل والخارج نسبة مئوية يتحقق بها العدل والتضامن في تحمل أعباء هذا الواجب الخطير ، وتفي بمتطلبات المهمة الخطيرة التي تنتظر المسلمين اليوم ، وفاء بحق دينهم ، وبحق الإنسانية التي ضلت طريقها ، ولا سبيل لهدايتها إلا عن طريق تعريفها بالدين الذي جاء لهداية الناس جميعًا[1] .

(١) المصدر السابق ١٧ – ١٨ .

مثل عليا
فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر

- ضبة وأبو موسى :

روى عن ضبة بن محصن العنبرى قال :

كان علينا أبو موسى الأشعرى أميرًا بالبصرة ، فكان إذا خطبنا ، حمد الله وأثنى عليه ، وصلى على النبى ﷺ وأنشأ يدعو لعمر رضى الله عنه .

قال : فغاظنى ذلك منه ، فقمت إليه فقلت له :

أين أنت من صاحبه تفضله عليه ؟

فصنع ذلك جُمعًا ، ثم كتب إلى عمر يشكونى ، يقول :

إن ضبّة بن محصن العنبرى يتعرض لى فى خطبتى .

فكتب إليه عمر ، أن أشخصه – أى أرسله – إلىّ .

قال : فأشخصنى إليه ، فقدمت فضربت عليه الباب ، فخرج إلىّ فقال : من أنت ؟

فقلت : أنا ضبة .

فقال لى : لا مرحبًا ولا أهلاً .

فقلت : فأما المرحب فمن الله ، وأما الأهل . فلا أهل لى ولا مال ، فبماذا استحللت يا عمر إشخاصى من مصرى بلا ذنب أذنبته ، ولا شيء أتيته ؟

فقال : ما الذى شجر بينك وبين عاملى ؟

قلت : الآن أخبرك به : إنه كان إذا خطبنا حمد الله وأثنى عليه ، وصلى على النبى ﷺ ، ثم أنشأ يدعو لك ، فغاظنى ذلك منه ، فقمت إليه وقلت له :

أين أنت من صاحبه تفضله عليه ؟

فصنع ذلك جمعا ثم كتب إليك يشكونى .

قال : فاندفع عمر رضى الله عنه باكيا ، وهو يقول :

أنت والله أوفق منه وأرشد فهل أنت غافر لى ذنبى يغفر الله لك .

قلت : غفر الله لك يا أمير المؤمنين .

قال : ثم اندفع باكيا وهو يقول :

والله لليلة من أبى بكر ويوم خير من عمر وآل عمر .

فهل لك أن أحدثك بليلته ويومه ؟

قلت : نعم .

قال : أما الليلة : فإن رسول الله ﷺ ، لما أراد الخروج من مكة هاربا من المشركين ، خرج ليلاً فتبعه أبو بكر ، فجعل يمشى مرة أمامه ، ومرة خلفه ، ومرة عن يمينه ، ومرة عن يساره .

فقال رسول الله ﷺ : ما هذا يا أبا بكر ؟

ما أعرف هذا من أفعالك !

فقال : يارسول الله ؛ أذكر الرصد فأكون أمامك ، وأذكر الطلب فأكون خلفك ، ومرة عن يمينك ، ومرة عن يسارك لا آمن عليك .

قال : فمشى رسول الله ﷺ ليلته على أطراف أصابعه حتى حفيت ، فلما رأى أبو بكر أنها قد حفيت حمله على عاتقه ، وجعل يشتد به ، حتى أتى فم الغار فأنزله ثم قال :

والذى بعثك بالحق لا تدخله حتى أدخله ، فإن كان فيه شيء ، نزل بى قبلك .

فدخله فلم ير فيه شيئًا فحمله وأدخله .

وكان فى الغار خرق ، فيه حيات وأفاعٍ ، فألقمه أبو بكر قدمه مخافة أن يخرج منه شيء إلى رسول الله ﷺ ، فيؤذيه ، وجعلن يضربن أبا بكر فى قدمه وجعلت دموعه تنحدر على خديه من ألم ما يجد ، ورسول الله ﷺ يقول : يا أبا بكر : لا تحزن إن الله معنا .

فأنزل الله سكينته عليه والطمأنينة لأبى بكر .

فهذه ليلته وأما يومه :

فلما توفى رسول الله ﷺ ارتدت العرب فقال بعضهم : نصلى ولا نزكى .

فأتيته لا ألوه نصحًا ، فقلت :

يا خليفة رسول الله تألف الناس ، وارفق بهم .

فقال لى : أجبار فى الجاهلية خوار فى الإسلام ؟ فبماذا أتألفهم ؟

قُبض رسول الله ﷺ ، وارتفع الوحى ، فوالله لو منعونى عقالاً كانوا يعطونه رسول الله ﷺ لقاتلتهم عليه .

قال : فقاتلنا عليه ، فكان والله رشيد الأمر .

فهذا يومه ، ثم كتب إلى أبى موسى يلومه .

عطاء وعبد الملك :

عن الأصمعى قال : دخل عطاء بن أبى رباح رضى الله عنه ، على عبد الملك بن مروان ، وهو جالس على سريره وحواليه الأشراف من كل بطن – أى قبيلة – وذلك بمكة فى وقت حجه فى خلافته ، فلما بصر به قام إليه ، وأجلسه معه على السرير ، وقعد بين يديه وقال له : يا أبا محمد ؟ ما اجتك ؟ فقال : يا أمير المؤمنين :

اتق الله فى حرم الله وحرم رسول الله ، فتعاهده بالعمارة .

واتق الله فى أولاد المهاجرين والأنصار ، فإنك بهم جلست هذا المجلس .

واتق الله فى أهل الثغور ، فإنهم حصن المسلمين ، وتفقد أمور المسلمين ، فإنك وحدك المسئول عنهم .

واتق الله فيمن على بابك ، فلا تغفل عنهم ، ولا تغلق بابك دونهم .

فقال له : أجل ، أفعل .

ثم نهض عطاء وقام فقبض عليه عبد الملك ، وقال :

يا أبا محمد ! إنما سألتنا حاجة لغيرك ، وقد قضيناها، فماحاجتك أنت ؟

فقال : مالى إلى مخلوق حاجة ؟

ثم خرج فقال عبد الملك : هذا وأبيك الشرف .

رجل فى الطواف والمنصور :

بينما المنصور فى الطواف ليلا إذ سمع قائلا يقول اللهم إنى أشكو إليك ظهور البغى والفساد فى الأرض ، وما يحول بين الحق وأهله من الطمع ، فخرج المنصور ، فجلس ناحية من المسجد ، وأرسل إلى الرجل يدعوه فصلى الرجل ركعتين ، واستلم الركن ، وأقبل مع الرسول فسلم عليه بالخلافة .

فقال المنصور : ما الذى سمعتك تذكر من ظهور الفساد والبغى فى الأرض ، وما الذى يحول بين الحق وأهله من الطمع ؟ فوالله لقد حشوت مسامعى ما أرمضنى .

فقال إن أمنتنى يا أمير المؤمنين أعلمتك بالأمور من أصولها ، وإلا احتجزت منك واقتصرت على نفسى فلى فيها شاغل .

قال : فأنت آمن على نفسك فقل . فقال : يا أمير المؤمنين ، إن الذى دخله الطمع حتى حال بينه وبين ما ظهر فى الأرض من الفساد والبغى لأنت فقال : فكيف ذلك ويحك ! يدخلنى الطمع والصفراء والبيضاء فى قبضتى والحلو والحامض عندى ؟ قال : وهل دخل أحد من الطمع ما دخلك ؟ إن الله استرعاك أمر عباده وأموالهم فأغفلت أمورهم وأتممت بجمع أموالهم ، وجعلتَ بينك وبينهم حجابًا من الجصِّ والآجُرّ ، وأبوابًا من الحديد وحراسًا معهم السلاح ثم سجنت نفسك عنهم فيها وبعثت عمالك فى جباية الأموال وجمعها ، وقويتهم

بالرجال والسلاح والكراع[1] ، وأمرت ألا يدخل عليك أحدٌ من الرجال إلا فلان وفلان ، نفرًا سميتهم ولم تأمر بإيصال المظلوم ، ولا الملهوف ، ولا الجائع العارى ولا الضعيف الفقير ولا أحد إلا وله فى هذا المال حق ، فلما رآك هؤلاء النفر الذين استخلصتهم لنفسك وآثرتهم على رعيتك وأمرت أن لا يُحْجبوا دونك ، تجبى الأموال وتجمعها . قالوا : هذا قد خان الله فما لنا لا نخونه . فائتمروا ألا يصل إليك من علم أخبار الناس شيء إلا ما أرادوا ، ولا يخرج لك عامل فيخالف أمرهم إلا خوّنوه عندك ونفوه ، حتى تسقط منزلته ، فلما انتشر ذلك عنك وعنهم ، أعظمهم الناس وهابوهم وصانعوهم ، فكان أول من صانعهم عمالك بالهدايا والأموال ليقووا بها على ظلم رعيتك، ثم فعل ذلك ذووا المقدرة والثروة من رعيتك، لينالوا ظلم من دونهم ، فامتلأت بلاد الله بالطمع ظلمًا وبغيًا وفسادًا ، وصار هؤلاء القوم شركاءك فى سلطانك وأنت غافل ، فإن جاء متظلم حيل بينك وبينه ، فإن أراد رَفْع قصته إليك عند ظهورك وجدك قد نهيت عن ذلك ، وأوقفت للناس رجلاً ينظر فى مظالمهم ، فإن جاء ذلك المتظلم فبلغ بطانتك[2] خبره سألوا صاحب المظالم أن لا يرفع مظلمته إليك ، فلا يزال المظلوم يختلف إليه ويلوذ به[3] ، ويشكو ويستغيث ، وهو يدفعه ، فإذا أجْهدَ وأحْرج ثم ظهرت صرخ بين يديك ، فيضرب ضربًا مبرحًا يكون نكالاً لغيره ، وأنت تنظر فما تُنكر !

---

(١) الكراع : الخيل .
(٢) بطانتك : المقربين إليك .
(٣) يلوذ : يحتمى .

فما بقاء الإسلام بعد هذا ؟ وقد كنت يا أمير المؤمنين أسافر إلى الصين فقدمتُها مرة وقد أصيب ملكهم بسمعه ، فبكى بكاء شديدًا .

فحثه جلساؤه على الصبر فقال : أما إنى لست أبكى للبلية النازلة ، ولكنى أبكى لمظلوم يصرخ بالباب فلا أسمع صوته ، ثم قال : أما إذ قد ذهب سمعى فإن بصرى لم يذهب ، نادوا فى الناس أن لا يلبس ثوبًا أحمر إلا متظلم ، ثم كان يركب الفيل طرفى النهار وينظر هل يرى مظلومًا فهذا يا أمير المؤمنين مشرك بالله ، بلغت رأفته بالمشركين هذا المبلغ ، وأنت مؤمن بالله من أهل بيت نبيه لا تغلبك رأفتك بالمسلمين على شح نفسك ! فإن كنت إنما تجمع المال لولدك ، فقد أراك الله عبرًا فى الطفل يسقط من بطن أمه ماله على الأرض مالٌ ، وما من مال إلا ودونه يدٌ شحيحة تحويه ، فما يزال الله يلطف بذلك الطفل ، حتى تعظم رغبةُ الناس إليه ، ولست الذى تعطى ، بل الله يعطى من يشاء . فإن قلت إنما تجمع المال لتشديد السلطان فقد أراك الله عبرًا فى بنى أمية ما أغنى عنهم جمعهم من الذهب وما أعدوا من الرجال والسلاح والكراع حين أراد الله بهم ما أراد . وإن قلت إنما تجمع المال لطلب غاية هى أجسم من الغاية التى أنت فيها فوالله ما فوق ما أنت فيه إلا منزلة ما تدرك إلا بخلاف ما أنت عليه يا أمير المؤمنين .

هل تُعاقبُ من عصاك بأشد من القتل . فقال المنصور : لا . فقال : فكيف تصنع بالملك الذى خولك مُلك الدنيا وهو لا يعاقب من عصاه بالقتل ولكن بالخلود فى العذاب الأليم ، قد رأى ما عقد عليه قلبك ، وعملته جوارحك ونظر إليه بصرك واجترحته يداك ومشت إليه رجلاك

هل يغنى عنك ما شححت عليه من ملك الدنيا إذا انتزعه من يدك ودعاك إلى الحساب ؟ قال : فبكى المنصور ، ثم قال : ليتنى لم أخلق ! ويحك كيف أحتال لنفسى ؟ فقال يا أمير المؤمنين ، إن للناس أعلاما يفزعون[1] إليهم فى دينهم ، ويرضون بهم فى دنياهم ، فاجعلهم بطانتك يرشدوك وشاورهم فى أمرك يسددوك ، قال : قد بعثت إليهم فهربوا منى قال : خافوك أن تحملهم على طريقتك ، ولكن افتح بابك ، وسهل حجاجك ، وانصر المظلوم واقمع الظالم وخذ الفيء والصدقات على حلها ، واقسمها بالحق والعدل على أهلها ، وأنا ضامن عنهم أن يأتوك ويساعدوك على صلاح الأمة .

وجاء المؤذنون فآذنوه بالصلاة ، فصلى وعاد إلى مجلسه ، وطلب الرجل فلم يوجد[2] .

كلام أبى حازم .. لسليمان بن عبد الملك :

حج سليمان بن عبد الملك ، فلما قدم المدينة للزيارة بعث إلى أبى حازم الأعرج وعنده ابن شهاب . فلما دخل قال : تكلم يا أبا حازم . قال : فيم أتكلم يا أمير المؤمنين ؟ قال : فى المخرج من هذا الأمر . قال : يسير إن أنت فعلته . قال : وما ذاك ؟ قال : لا تأخذ الأشياء إلا من حلها ولا تضعها إلا فى أهلها . قال :

ومن يَقْوى على ذلك ؟ قال : من قلده الله من أمر الرعية ما قلدك . قال : عظنى أبا حازم ! قال : اعلم أن هذا الأمر لم يصْر إليك إلا بموت

---

(١) يفزعون : يلجئون .

(٢) العقد الفريد ٣/١٠٣ - ١٠٦ .

من كان قبلك ، وهو خارج من يديك بمثل ما صار إليك ، قال يا أبا حازم أشرْ علىّ ، قال : إنما أنت سوق ، فما نفق عندك حمل إليك من خير أو شر فاختر أيهما شئت . قال : مالك لا تأتينا ؟ قال : وما أصنع بإتيانك يا أمير المؤمنين ؟ إن أدنيتنى فتنتنى وإن أقصيتنى أحزيتنى ، وليس عندك ما أرجوك له ، ولا عندى ما أخافك عليه ! قال : فارفع إلينا حاجتك . قال : قد رفعتها إلى من هو أقدر منك عليها ، فما أعطانى منها قبلت ، وما منعنى منها رضيت[1] .

مقام ابن السماك عند الرشيد :

دخل عليه فلما وقف بين يديه قال له ، عظنى يابن السماك وأوجز .

قال : كفى بالقرآن واعظًا يا أمير المؤمنين ، قال الله تعالى : ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ويل للمطففين الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون وإذا كالوهم أو وزنوهم يُخْسرون ألا يَظُن أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم يوم يقوم الناس لرب العالمين ﴾[2] .

هذا يا أمير المؤمنين وعيد لمن طفف فى الكيل ، فما ظنك بمن أخذه كله ! وقال له مرة : عظنى . وأتى بماء ليشربه . فقال : يا أمير المؤمنين ، لو حبست عنك هذه الشربة أكنت تفديها بملكك ؟ قال نعم . قال : فلو حبس عنك خروجها أكنت تفديها بملكك ؟ قال : نعم ! قال : فما خير فى ملك لا يساوى شربة ولا بَوْلة ! قال : يا ابن السماك ، ما أحسن ما بلغنى عنك ؟ قال : يا أمير المؤمنين ، إن لى

---

(١) السابق ٣/١٠٧ - ١٠٨ .

(٢) سورة المطففين الآية ١ - ٦ .

عيوبا لو اطلع الناس منها على عيب واحد ما ثبت لى فى قلب أحد مودة وإنى خائف فى الكلام الفتنة وفى السر الغرة وإنى لخائف على نفسى من قلة خوفى عليها[1] .

كلام عمرو بن عبيد عند المنصور :

دخل عمرو بن عبيد على المنصور وعنده ابنه المهدى ، فقال له أبو جعفر : هذا ابن أمير المؤمنين ، وولى عهد المسلمين ، ورجائى أن تدعو له . فقال : يا أمير المؤمنين ، أراك قد رضيت له أمورًا يصير إليها وأنت عنه مشغول فاستعبر أبو جعفر وقال له عظنى أبا عثمان ! قال يا أمير المؤمنين ! إن الله أعطاك الدنيا بأسرها ، فاشتر نفسك منه ببعضها ، هذا الذى أصبح فى يديك لو بقى فى يد من كان قبلك لم يصل إليك ! قال : أبا عثمان أعنى بأصحابك . قال : ارفع علم الحق يتبعك أهلُه ، ثم خرج فاتبعه أبو جعفر بصرة ، فلم يقبلها ، وجعل المنصور يقول :

كلكم يمشى رُوَيْدْ كلكم خاتل صيد[2]

غير عمرو بن عُبَيْدْ[3] .

---

(١) العقد الفريد ١٠٨/٣ .

(٢) خاتل : ختل الصيد أى تخفى ، فهو خاتل .

(٣) العقد الفريد ١٠٩/٣ .